دلائل البيان في العربية (١)

من تدبّر العلوم اللسانية في اللغة العربية كالصرف والنحو رأى انهُ قد مرّ بها حتى الآن ثلاثة ادوار الاول دور استقراء وتطبيق. الاستقراء هو استخراج احكام اللغة وقواعدها من اللغة نفسها كما فعل النحاة الاولون ثم صارت هذه الاحكام والقواعد قضايا مقررة تحوم حولها ابحاث من جاء بعدهم من المؤلفين يحاول كلٌ منهم ان يطبقها على اللغة شاذّها ومقيسها. اي استخرج النحاة الاولون من الجزئيات كليات ومن جاء بعدهم طبق الكليات على الجزئيات فيكون قد ابتدأ الدور بالاستقراء وانتهى بالتطبيق طرداً وعكساً. مثال ذلك استقرى النحاة الفاعل في جمل كثيرة فقالوا الفاعل مرفوع ثم قالوا ان لفظة رجل في قولنا جاء الرجل مثلا مرفوع لانهُ فاعل. الدور الثاني دور التبويب والترتيب. كان همّ كل مؤلف في هذا الدور تتبع الاحكام الكلية في مظانها وترتيبها في فصول وابواب اشبه بالفهارس ضموا فيهِ النظير الى نظيرهِ والفرع الى اصلهِ ولكن لم يجيء احد منهم بشيء جديد من عنده بل اقتصروا على آراء البصريين والكوفيين وذكر الراجح والمرجوح من تلك الآراء بلا بحث ولا نكير. الدور الثالث دور الاجتهاد. حاول المؤلفون فيهِ ان يخرجوا من عهدة ذلك التقليد بان يذكروا هنا وهناك بعض آراء لم يسبقهم اليها احد ففتحوا بذلك باب الاجتهاد. ولا شك اننا اصبحنا اليوم في زمان لا بد فيهِ من اعادة النظر في كل ما وضعهُ الاولون وتسلمناهُ منهم كقضايا مقررة لا تقبل الاعتراض او الانتقاد وبناء ذلك على مبادىء جديدة علمية فان عندنا من الوسائل ما لم يكن عندهم. كان علماء اللغة في قديم الزمان لا يعرفون غير اللغة العربية ولم يكونوا يعرفون ما يسمى اليوم بعلم مقابلة اللغات بعضها ببعض او ما يسمى علم تحليل اللغات او فلسفتها. بلى حاول بعضهم التعرض لهذه الابحاث منهم ابو الفتح عثمان بن جني الموصلي في كتابيهِ

(١) محاضرة ألقاها في الجامعة المصرية في اواخر دسمبر الماضي حضرة الفاضل خليل افندي السكاكيني ناظر القسم العربي في المدرسة السيدية . وهو أول سوري خطب في الجامعة المصرية

الخصائص في اللغة وسر الصناعة في النحو ولكن ابحاثهم كانت في عهد طفوليتها واما اليوم فقد ارتقت هذه العلوم وصارت خصائص اللغة واسرارها علماً باصول واصبح عالم اللغة لا غنى لهُ عن تعلم اخوات تلك اللغة بل لغات اخرى عديدة قديمة وجديدة . وقد عرفت في بلاد الانكليز واميركا اساتذة كثيرين من علماء اللغات الشرقية يعرف الواحد منهم مع اللغة العربية العبرانية والسريانية والحبشية والتركية والفارسية والسنسكريتية ما عدا اللغات الاوربية الحديثة والقديمة الى ما يجاوز العشر لغات . وقد لقيت في كمبردج شيخاً مصرياً وهو استاذ في احدى المدارس العالية في القطر المصري فلما رأى من سعة معرفة اولئك الاساتذة وتبحرهم في علم اللغات قال في قصيدة أرسلها الى احد العلماء في مصر

انا في بلاد الانكليز اسير كالطفل الصغير
في كمبردج مدينة العرفان ليس لها نظير
فيها الاساتذة الفحام ومن يعادل شكسبير
لا علم لي حتى اجادلهم ولا عقل كبير
لكنني مسترشد شأن الضرير مع البصير
ولقد ذكرتك قائلاً في مصرنا البدر المنير
كلٌّ باطراف البنان اليهِ اجلالاً يشير

ولاولئك العلماء مؤلفات غزيرة المادة مشبعة التفصيل في تاريخ اللغات وفلسفتها ومقابلتها بعضها ببعض استجلوا غوامضها واستبطنوا دخائلها واستخرجوا منها حقائق بنيت عليها العلوم اللسانية في لغاتهم . وأول من طرق هذه الابحاث الجديدة في اللغة العربية على ما اذكر احمد فارس الشدياق والشيخ ابرهيم اليازجي وجورجي زيدان وروحي الخالدي المقدسي وجبر ضومط وبندلي الجوزي المقدسي وانستاس الكرملي ثم انقطع العهد بتلك الابحاث ولم تترتب عليها فائدة عملية ولعل لذلك سببين الاول تراجع النهضة وقلة المشتغلين بها والثاني عدم الجرأة على ابداء رأي جديد . وقد خطر لي اثناء معالجتي هذه المواضيع من النظرات والخواطر ما اتجرأ على عرضهِ عليكم شيئاً بعد شيء وانا لا اجهل ان بضاعتي مزجاة وان رأس مالي نزر يسير . وسأقتصر في محاضرتي هنا على الكلام عن دلائل

البيان التي تتميز بها وظيفة الكلمة في الجملة فاقول : تفهم وظيفة الكلمة في الجملة اما بالقرينة المعنوية نحو فهم موسى المعنى او فهم المعنى موسى فان الفاعل هو موسى والمفهوم هو المعنى اذ لا يصح غير ذلك . واما بالترتيب نحو سبق اخي غلامي لان كلاً منهما يصح ان يكون سابقاً او مسبوقاً ذكرنا السابق اولاً والمسبوق ثانياً لان علاقة الفعل بالفاعل سابقة لعلاقته بالمفعول واما بالاعراب نحو ضرب زيدٌ عمراً او ضرب عمراً زيد فالضارب هو زيد والمضروب هو عمرو في الجملتين وقد فهمنا ذلك ليس من المعنى لانه يصح ان يكون كلاهما ضارباً او مضروباً وليس من الترتيب لان كلمة زيد جاءت قبل كلمة عمرو في الجملة الاولى وبعدها في الجملة الثانية وانما عرفنا ان زيداً هو الضارب لانهُ مرفوع وان عمراً هو المضروب لانهُ منصوب فدلائل البيان ثلاثة القرينة والترتيب والاعراب وهذا آخر ما وصلت اليهِ اللغة العربية ولا بد ان تكون هذه الدلائل قد مرت على ادوار مختلفة قبل ان وصلت الى صورتها الحاضرة التي ورثناها من عهد التدوين جرياً على ناموس النشوء والارتقاء كما سنبينهُ فيما يلي

— القرينة —

لا شك ان القرينة هي اقدم واسطة لبيان وظيفة الكلمة وقد مر زمان طويل على اللغة كان الاعتماد في بيان المعنى على القرينة وحدها وذلك قبل ان يكون في اللغة ترتيب ملزوم او اعراب اعتباري . فكانوا يقدمون او يؤخرون وكانوا يرفعون او ينصبون او يخفضون او يجزمون او يبنون كما يجيء منهم اتفاقاً لغير قصد . ولما كان اعتمادهم في هذا الدور على القرينة وحدها فلا بد انهُ كان هنالك قرائن كثيرة تختلف وضوحاً او خفاء يستدلون بها على المعنى . ولاعتيادهم الاعتماد على القرينة فلا بد انهم كانوا يتسامحون لادنى القرائن واضعفها مع ذلك فان التفاهم كان صعباً لما يقع فيهِ من اللبس والغموض احياناً ان ان مواضيع الكلام كانت بسيطة يدرك المعنى منها باقل لمحة . . من تلك القرائن طبقة الصوت وهيئة اطلاقهِ بين ان يكون ليناً او خشناً عالياً او سافلاً مما هو بالصوت الموسيقي اشبه منهُ بالصوت المنطقي كما قال اليازجي ولا تزال آثار ذلك في اللغة الى اليوم كاختلاف اللهجة في الاستفهام او التعجب عنها في الخبر . بل لولا اختلاف اللهجة لاصبح

كثير من الكلام لغواً. تكرر الالفاظ للتأكيد مثل جاء الامير الامير ولكن اذا لم نرفع الصوت قليلاً في اللفظة الثانية فلا تأكيد فيها ولو كررناها عشر مرات. تتبع اللفظة باخرى لبيانها مثل جاء اخوك زيد ولكن اذا لم تكن الثانية اعلى نغمة من الاولى فلا تفيد بياناً. نستعمل إنّ للتأكيد ولكن اذا لم نجعل النبرة شديدة على النون فلا تفيد تأكيداً الى غير ذلك مما لا يتسع المجال للافاضة فيه. بل ان اللهجة قد تقلب المعنى الى ضده. يقال انهُ حكم مرة على رجل ان يقف امام الناس ويقول « ايها الناس انا لصٌ » فلما وقف قال « ايها الناس انا لصٌ » بلهجة استنهام فانقلب المعنى من اقرار الى انكار. ومن القرائن الاشارات وملامح الوجه يقال ان بعض زنوج افريقيا اذا غابت الشمس سكنت جلبتهم لانهم لا يستطيعون ان يتفاهموا بالكلام وحدهُ وبسبب ظلمة الليل لا يستطيعون ان يستعينوا بالاشارات والملامح. بل انك اليوم لا تجد احداً يتكلم بدون ان يستعين بالاشارات والملامح على تقوية معناهُ او ايضاحهِ او استدعاء الانتباه اليهِ مما يدل على ان اللغات على ارتقائها واتساعها لا تزال ناقصة وانها دون التصوير والموسيقى. فان المصور قد يصور بريشته ما تعجز ارق اللغات عن الغناء فيهِ والموسيقي قد يترجم بنغماتهِ عما لا يؤديه كلام. هذا على ارتقاء اللغات في هذا العصر فكيف يوم كانت في اول عهدها. وعلى ذلك فليست الفاظ اللغة هي اللغة كلها بل هي جزء من اللغة تتممهُ الاشارات والملامح وطبقة الصوت وقرائن اخرى. وهذا سر ان التشبيه ابلغ من الحقيقة. اذا اردت ان تصور شخصاً غريباً لغيرك فهما دققت في وصف ملامحهِ وتقاطيعهِ واعضائهِ وبيان لونهِ وطولهِ وعرضهِ فانك لا تستطيع ان تعطي الصورة الحقيقية عنهُ ولكن يكفي ان تذكر شخصاً يعرفهُ ثم تقول انهُ يشبههُ شبهاً تاماً فانهُ يستطيع حينئذٍ ان يتصور ذلك الشخص في ذهنهِ. فلو كانت اللغة كافية لما كانت هناك حاجة الى التشبيه. ومن تدبر اللغة العربية وجد فيها شيئاً كثيراً من لغة الملامح والاشارات مثل قولهم في الخوف امتقع لون فلان واقشعر جلده واصطكت ركبتاهُ وارتعدت فرائصهُ وارعشت مفاصلهُ ومثل قولهم في الغضب قطب وجههُ وزوى ما بين عينيهِ وانتفخت اوداجهُ وتزبد فوه الى غير ذلك مما يصور المعنى تصويراً. ولا شك ان ذلك من آثار ذلك العهد الذي كانت

فيه الملاح والاشارات قرائن على المعنى وهو ايضاً سر ان الخطابة والانشاد والتمثيل والغناء واقع في النفس من القراءة الفكرية

— الترتيب —

مرّ على اللغة زمان طويل والترتيب فيها مشوش لغير سبب اعتماداً على القرائن التي تقدم ذكرها . ولا يزال في اللغة آثار هذا التشويش اذ لا تزال تقدم تارة الموصوف على الصفة فتقول ليس في المسألة امر كبير وتارة الصفة على الموصوف فتقول ليس في المسألة كبير امر . ثم دخلت اللغة في دور ثان فلزم الترتيب فيه صورة معلومة كذكر الفاعل قبل المفعول وذكر المسند اليه قبل المسند لاعتبارات خصوصية عندهم ليس هذا محل بسطها . ولا تزال نراعي هذا الترتيب اذا لم يكن هناك قرينة معنوية او قرينة اعرابية . وبعد ان تولد الاعراب في اللغة دخلنا في دور ثالث تحررنا فيه من قيود الترتيب وعدنا الى التشويش . والفرق بين هذا الدور والدور الاول ان التشويش كان في الدور الاول اعتباطياً فصار في الدور الثالث لاغراض بيانية مقصودة وهذا ارقى ما وصلت اليه اللغات في البيان حتى الآن . وقد ساعدنا على ذلك امران القرينة والاعراب ولولا الاعراب للزم الترتيب صورة معلومة لا يتعداها على ما نراه في اللغات الاخرى فان الفاعل في اللغة الانكليزية مثلاً لا يجيء الاّ قبل المفعول سواء دلت عليه القرينة اولا بسبب انها ليست لغة اعرابية وكما نراه في اللغة العربية نفسها اذا كانت الكلمات لا تقبل اعراباً او لم تكن هناك قرينة معنوية فانه يلزم الترتيب فنذكر الفاعل قبل المفعول مثل سبق اخي غلامي ونذكر المسند اليه قبل المسند اذا استويا في التعريف والتنكير ولم يكن هناك قرينة للتمييز بينهما مثل اخي رفيقي وافضل منك افضل مني . فالادوار التي مرت على الترتيب ثلاثة الاول الدور المشوش لغير قصد اعتماداً على القرينة . والثاني الدور المرتب لاعتبارات خصوصية . والثالث الدور المشوش لاغراض بيانية اعتماداً على الاعراب والقرينة

— الاعراب —

من تتبع الدرجات التي مرت عليها اللغات في انتقالها من الدور التقليدي الى الدور النطقي اي من تقليد الاصوات تقليداً بسيطاً الى الفاظ مستقلة يدل بها على

المعاني دلالة صماء لا تظهر فيها صبغة التقليد كما قال المرحوم جرجي زيدان يرى ان الاعراب هو آخر ما وصلت اليهِ اللغات حتى الآن وعلى ذلك فهو عنوان رقيها . وهذا يحتمل كلاماً طويلاً ليس من غرضنا في هذه العجالة التعرض لهُ . وانما غرضنا هنا هو ان نشير الى الادوار التي مرت على الاعراب الى ان وصل الى حالتهِ الحاضرة ثم نتبع ذلك بكلمة في الاعراب نفسهِ نجملها خاتمة هذا البحث. كان الاعراب في دورهِ الاول مشوشاً فكانوا يرفعون او ينصبون او يخفضون او يجزمون اعتباطا لغير قصد بياني اعتماداً على القرينة والترتيب ولعل الغرض من الاعراب في هذا الدور كان تزيين الكلام وزخرفتهُ فقولك جاء الضاربُ بضم الباء آنق من قولك جاء الضارب بأسكانها ولعلهم استعملوهُ في اول الامر في الشعر لما يتوخونهُ فيهِ من الزخرفة والتأنق ولما الفوهُ استعملوهُ في النثر ايضاً. ومن تدبر الشعر في اللغة العامية ليومنا هذا رأى انهم قد يحركون من اواخر الكلم فيهِ ما لا يحركونهُ في كلامهم العادي وتلك حالة في اللغة اي الاعراب المشوش بدون ضابط لا بد ان يأول امرها اما الى الالغاء بتاتاً او الدخول في دور ثان يستخدم فيهِ الاعراب لغرض آخر لا لمجرد الزينة او الضرورة الشعرية. والواقع ان الالغاء ابتدأ في اللغة ولكن في الوقف ولولا القليل لسقط في كل المواطن وان اللغة دخلت في دور ثان استخدم فيهِ الاعراب لبيان وظيفة الكلمة في الجملة ولكن وقفت اللغة في اول هذا الدور قبل ان ينضج الاعراب ويتم إحكامهُ في كل مواطنهِ كما سترى . ففي دورهِ الاول كان شيئاً خارجاً عن اللغة فاذا ألغي لم تتأثر لان الاعتماد في بيان المعنى كان على القرينة والترتيب ولذلك نرجح ان الغاءهُ في الوقف ابتدأ في هذا الدور واما في دورهِ الثاني وهو الدور الذي تشوش فيهِ الترتيب لاغراض بيانية نص النحاة والبيانيون على مواطنها فقد صار من مقومات اللغة وخصائصها لان هناك مواطن كثيرة في الكلام لا دليل على المعنى فيها غير الاعراب فاذا الغي رجعت اللغة الى اللبس والغموض . فأنت ترى ان الاعراب قد ساعد العرب على ان يستفيدوا من الترتيب المشوش في الدلالة على معانٍ تعجز اللغات الاخرى عن أدائها الا ان اللغة وقفت قبل ان يتم نضجهُ اي وصل الينا وفيهِ آثار التشويش وهذا التشويش نرجو ان نوجز استعمل قديماً ثم اهمل ومن

تفقد كتب النحو وقع على شيء كثير من هذا فقد اجازوا نصب الاسم عند امن اللبس نحو خرق الثوب المسمار وكسر الزجاج الحجر بنصب المسمار والحجر ومنهُ قول الشاعر

مثل القنافذ هداجون قد بلغت نجرانُ او بلغت سوءاتهم هجرُ

برفع نجران وهجر ونصب سوءات وقاسهُ ابن الطراوة عملاً بقراءة فتلقى آدم من ربهِ كلمات بنصب آدم ورفع كلمات ومنهُ ان بعض العرب كان ينصب بان او احدى اخواتها المبتدأ والخبر نحو

اذا اسودَّ جنح الليل فلتأتِ ولتكن خطاك خفافاً ان حراسنا اسدا

ونحو قولهِ

كأنَّ اذنيهِ اذا تشوفا قادمةً او قلماً محرفا

وقولهِ يا ليت ايام الصبى رواجعا . ونحو قولهم لعل اباك قادما . ومثلهُ جزم الفعل بعد لَن مع انها من النواصب كقول الشاعر

لن يخب الآن من رجائك من حرك من دون بابك الحلقه

ومثلهُ جزم الفعل باذ الناصبة نحو قولهِ

اذا ما غدونا قال ولدان اهلنا تعالوا الى ان يأتنا الصيد نحطبِ

ومثلهُ اهمال لم الجازمة نحو قولهِ

لولا الفوارس من نُعَم واسرتهم يوم الصليفاء لم يوفون بالجارِ

وقولهِ

وتضحك مني شيخةٌ عبشميةٌ كأن لم ترى قبلي اسيراً يمانيا

وقال ابن مالك انها لغة وزعم اللحياني ان بعض العرب ينصب بها كقراءة بعضهم ألم نشرحَ . وقولهِ

في اي يومَيَّ من الموت افر ايوم لم يقدرَ او يوم قدر

ومثله اهمال لا الناهية نحو

لا تهين الفقير علك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

وان اوطا النحاة بتقدير نون التوكيد الخفيفة — ومثله اهمال اذا الشرطية في الشعر واهمالها في النثر — ومثله جزم الفعل المرفوع في قوله :

ابيت اسري وتبيتي تدلكي وجهك بالعنبر والمسك الذكي

ومثل قوله:

يالك من قنبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري
قد رفع الفخ فماذا تحذري

ومثل قوله:

فاليوم اشرب غير مستحقب اثماً من الله ولا واغل

الى غير ذلك ... ومنهُ نوع لا يزال مستعملاً في اللغة الى اليوم راليك البيان يقول النحاة ان المسند اليهِ والمسند يرفعان لانهما عمدة ولكنهم يرام ينصبون الاول بعد إنّ او احدى اخواتها وينصبون الثاني بعد كان او احدى اخواتها فلماذا نصبا اذا كانا عمدة لاشك ان ذلك اثر من آثار التشويش في الاعراب. ومثله بناء اي على الضم في مثل قولهم سلم على ايُّهم افضل وبناء الظروف المنقطعة عن الاضافة في مثل قولهم الحمد لله من قبلُ ومن بعدُ ومثل بناء بعض الالفاظ المبنية. فاذا كانت اللغة اعرابية فامعنى بناء بعض الفاظها. ومثل اعمال ما على لغة اهل الحجاز واهمالها على لغة اهل تميم بل اعمالها على لغة اهل الحجاز بشرط ان تكون متصلة ولم ينتقض نفي خبرها بإلاّ نحو ما زيدٌ شاعراً واهمالها اذا لم تكن كذلك نحو ما قائم زيدٌ وما غلامك عمرٌو ضارب وما زيد الا شاعرٌ وما ان عمرٌو كريمٌ بخلاف ليس في ذلك كلهِ مع انها نافية مثلها. ومثل نصب الجمع المؤنث السالم بالكسر ومثل اعراب الفعل المضارع ولا سيما في حالتي الرفع والنصب فقد حار النحاة في سبب اعرابهِ وغير ذلك مما ليس من غرضنا تعدادهُ واحصاؤهُ. وهذا النوع الثاني من التشويش اصبح قياسيًّا في اللغة. واكبر لذة في درس اللغات تكون في هذا المزيج من المعقول وغير المعقول والقياسي والشاذ وقد قال احد علماء اللغة ان اللغة مثل صديق هفواتهُ تعزز لدينا وتزيدنا محبة

ستأتي البقية